ملحق شهري
يصدر عن
مؤسسة المدى
للاعلام والثقافة
والفنون

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

عراقيون

زمن التوهج

No. (1309) Sat. (30) Aug. 2008

العدد (1309) السبت (30) آب 2008

المـــؤرخ جـــواد علي وتـــاريخ العـــرب قبل الاسلام

أ.د.إبراهيم خليل العلاف

حينما يتذاكر الناس في تاريخ العرب وفي طبيعة ما كانوا عليه قبل الإسلام، فان المؤرخ الأستاذ الدكتور جواد علي، رحمه الله ، أول ما يتبادر إلى أذهانهم. ويكفيه فخرا انه ألف كتابيه الشهيرين (تـاريخ العـرب قبل الإسلام) بثمانية مجلدات و(المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام) بعشرة مجلدات. وقد أسعدني الحظ أن أكون احد تلاميذه في العام الدراسي ١٩٦٤-١٩٦٥ عندما كنت طالبا في كلية التربية بجامعة بغداد وقد درسنا مادة تاريخ العرب قبل الإسلام. لقد أعجبت به شأني شان زملائي كلهم فللرجل هيبته وكنا نشعر بان العلم والأخلاق يتجسدان به وقد ازداد إعجابنا به بعد تقدمنا في دراسة التاريخ وعرفنا منزلته عند المؤرخين العراقيين والعرب والأجانب.

ولد الأستاذ الدكتور جواد علي في الكاظمية ببغداد سنة ١٩٠٧ ودرس في الاعظمية حيث كلية الإمام الأعظم أبو حنيفة وبعد أكمل دراسته في دار المعلمين العالية (كلية التربية) وبعد تخرجه فيها سنة ١٩٣١ عين مدرسا في إحدى المدارس الثانوية وسرعان ما رشح ليكون ضمن بعثة علمية إلى ألمانيا وقد حصل على الدكتوراه من جامعة هامبورغ سنة ١٩٣٩ وذلك عن رسالته الموسومة (المهدي وسفرائه الأربعة) بالالمانية .

عاد إلى العراق وصادفت عودته قيام ثورة مايس ١٩٤١ ونشوب الحرب العراقية –البريطانية فانضم إلى الثورة وبعد فشلها اعتقل في معتقل الفاو ثم أطلق سراحه وأعيد إلى الوظيفة في وزارة المعارف واختير ليكون أمينا لسر لجنة التأليف والترجمة والنشر التي قدر لها أن تكون نواة للمجمع العلمي العراقي سنة ١٩٤٧ وفي ١٩٥٦ أصبح عضوا عاملا في المجمع واختير عضوا مراسلا ومؤازرا في مجامع اخرى عربية وعالية

عمل الدكتور جواد علي مدرسا وأستاذا مساعدا ثم أستاذا في قسم التاريخ بكلية التربية –جامعة بغداد منذ الخمسينات من القرن الماضي وفي العام الدراسي ١٩٥٧ - ١٩٥٨ عمل أستاذا زائرا في جامعة هارفارد الاميركية وقد تقاعد فمنحته جامعة بغداد لقب (أستاذ متمرس) .

نشر الدكتور جواد علي قرابة (٥٠) دراسة في مجلة المجمع العلمي العراقي كما كتب في مجلات أخرى منها (المعلم الجديد) وحصل في حياته على تكريمات وأوسمة منها وسام المعارف اللبناني ووسام المؤرخ العربي وحضر ندوات ومؤتمرات عديدة منها مؤتمرات المستشرقين التي كانت تعقد في ألمانيا.

من مؤلفاته المنشورة :

١, التاريخ العام (بغداد ١٩٢٧)

٢, أصنام العرب (بغداد ١٩٦٧)

٣, تـاريخ العـرب قبل الإسلام (ثمانية مجلدات) طبعها المجمع العلمي العراقي بين سنتي ١٩٥٦ - ١٩٦٠ .

٤, المفصل في تـاريخ العـرب قبل الإسلام (عشرة مجلدات) طبعت في بيروت بين سنتي ١٩٦٨ . 1947 –

5.تاريخ الصلاة في الإسلام (بغداد ١٩٦٨)

٦, تاريخ العرب في الإسلام (بيروت ١٩٦٩)

كما أن له كتبا غير منشورة منها كتابيه (معجم ألفاظ المسند) و(المفصل في تاريخ العرب في الإسلام) وقد نشر مع الدكتور احمد سوسة والأستاذ بهجت الأثري خارطة الإدريسي المعروفة بـ (صورة الأرض) وطبعت سنة ١٩٥١ . وله بحث موسع نشر متسلسلا في مجلة المجمع العلمي العراقي (١٩٥٠ - ١٩٥٤) حول موارد تاريخ الطبري .

كان الدكتور جواد علي مؤرخا رانكويا (نسبة إلى المؤرخ الألماني ليوبولد فون رانكة) والذي يقول إن وظيفة المؤرخ أن يعيد تشكيل الحدث التاريخي كما وقع بالضبط. وبشان منهجه هذا فان صديقنا الأستاذ حميد المطبعي اجرى معه في مجلة أفاق عربية (السنة ٣ ،العدد ١ ،آذار ١٩٧٨) حوارا قال فيه إن ثمة مشاكل تعترض المؤرخ منها مشكلة الرجوع إلى المصادر الحقيقية ومشكلة المؤلفات القديمة باللغات المختلفة ومشكلة تشتت المصادر وتبعثرها.

ويعيب الدكتور جواد علي على المؤرخين أخذهم بالعموميات بدلا من اعتماد المنهج العلمي ويضيف إن على المؤرخ أن يدرس التاريخ وفقا للظروف والحوادث التي وقعت وليس كما هو الحاضر ويحذر المؤرخين من تدخل العواطف وتحكم المذهبية واصطباغ التاريخ بصبغة عقائدية ويقول ((يقتضي على المؤرخ ليكون تاريخه علميا منزها تجنيب نفسه المذهبية المتزمتة وعليه نقد الروايات نقدا علميا محايدا ...)). ويضيف ((ثم يقوم بربط الأخبار بعضها ببعض، وشد اجزائها شدا محكما بأسلوب يتناول كل الوجوه واعتبار التاريخ تاريخ بشر وهو حكم وسياسة والسياسة سياسة في كل وقت ومكان ولن يختلف فيها إنسان عن إنسان)).

ويرى الدكتور جواد علي، إن العرب يمتلكون تاريخا ثرا وهم في غنى عن الإضافة إلى تاريخهم وتحميله ما ليس منه. ويدين استخدام الدولة التاريخ أداة بيدها ويقول إن هذا مرض مزمن في البشرية مما حمل الناس على الشك في صحة التاريخ واعتباره مجرد كذب وتلفيق ويضيف ((لازال التلفيق والتنميق جاريان في التاريخ، ولاسيما في السياسات المذهبية وفي الأمور الشخصية وفي الحروب وفي الجدل بأنواعه، غير إن بوسع المؤرخ في الوقت الحاضر الكشف عن الواقع بفضل تعدد المصادر والمقارنة بينها واستخلاص الحقائق .

وفيما يتعلق بالدعوات حول إعادة كتابة التاريخ قال الدكتور جواد علي إن تلك الدعوات لم تنبع من فلسفة أصيلة مدروسة وإنما من ميول ومحاكاة ومحاباة ونابعة من توجيه البيئة والعصر وإخضاع التاريخ لمنطق الرأي السائد في عصر المؤرخ. وبشان عوامل تفسير التاريخ التي يجب على المؤرخ أن يتسلح بها يقول الدكتور جواد علي أنها :

١, التاريخ يستمد وحيه من واقع الظروف التي صنع فيها وذلك بعد تحليل وعمل فكر واحاطة بالروايات وبالوثائق الواردة عن الحادث .

٢, تدوين التاريخ وفقا للاجتهاد الذي يتوصل إليه وجدان المؤرخ عنه .

٣, عدم الرضوخ لمدرسة معينة من المدارس التي تفسر التاريخ وفقا لديانتها وعقيدتها في تفسير التـاريخ ،لان التاريخ لرأي معين معناه إننا نزيف ونحور التاريخ ونصوغه وفقا لعقيدتنا الضيقة ،فهنا إخضاع لحكم جامد يتنافى مع ضرورات المنهج العلمي في تفسير التاريخ .

٤, على المؤرخ إن يشخص كل جوانب التاريخ ،فلا يقتصر على التمجيد والمديح ،وفي الوقت نفسه لا يحاول تسقط العثرات ومواطن الضعف .

٥, أن يكون المؤرخ وصافا عالما عادلا أي أن ينظر إلى منشأ الروايات واتجاه رواتها والزمن الذي عاش فيه صاحب الرواية وناقلها .

٦, وإزاء هذه المواصفات ،علينا ، يضيف الدكتور جواد علي ،أن نحذر من النظرة القسرية إلى تاريخنا، ويجب التبصر فيما يكتب في كل بيئة معارضة وعلى المؤرخ عدم الاقتصار على الجوانب السياسية وشمول كل جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية بالاهتمام .

٧, ويقدم الدكتور جواد علي وصيته الأخيرة للمؤرخ المعاصر وهي إن على مؤرخ اليوم أن يتحدث عن كل جوانب الحياة ..عن كل الطبقات ..عن الخاصة والسواد .

يقول الدكتور خلدون درويش لطفي في مقال له عن الدكتور جواد علي نشره في مجلة (المؤرخ العربي) وبالعدد ٥٦ (١٩٩٨) : أن الدكتور جواد علي يعد من كبار المؤرخين العرب المعاصرين ، وقد اشتهر بمؤلفاته الرصينة وأبحاثه القيمة التي أكسبته هذه الشهرة والمنزلة الرفيعة بين المؤرخين البارزين على الساحتين العربية والعالمية. توفي ،رحمه الله ، سنة ١٩٨٧ وترك بيننا إرثا يخلده ابد الدهر.

مـــأثـــرة جـــواد علي في كـتـــابـــة الـتـــاريـخ

> كلية التربية ، ضمت تشكيلات جامعة بغداد ، صرح ثقافي وعلمي ، أكتسب عراقته وأصالته لانتسابه لذاك الكيان المعروف بـ (دار المعلمين العالية) والوريث الشرعي له ، الذي تخرج فيه السياب ، نازك الملائكة ، البريكان ، عبدالجبار عبدالله ، كمال مظهر أحمد ، وغيرهم من الاعلام ، قافلة طويلة من مبدعي ثقافة العراق لاكثر من نصف قرن هذا الصرح ضمنا منتصف ستينيات القرن الماضي الذي شهد نضج الحركة الثقافية واحتدامها ، وكان عدد من أساتذة وطلبة الكلية جزءا" من المشهد الثقافي العراقي ، أسهموا فيه بفاعلية ، وشكلوا بعض ملامحه ، وأغنوا مضامينه بالبحث والدراسة. كيف لا؟ وقمم اللغة والادب العراقيون ، هم أساتذة جيل واسع وعريض. تتلمذ على أيدي هؤلاء ، ونهل بشغف من معارفهم وعلومهم وهم لا يألون جهدا" أن يقدموا خبراتهم وتجاربهم المعرفية الغنية لتلامذتهم بتواضع وادب نادرين .هذا الجيل من الطلبة لن ينسى مصطفى جواد ، عبدالرزاق محيي الدين علي جواد الطاهر ، كمال السامرائي ، حسين أمين ، عبدالعزيز البسام ، فاضل حسين عبدالواحد لؤلؤة ، محسن غياض ، حسن طه النجم ،علي الميام ، عبدالله الفياض وغيرهم .كائنات الملائكة ، مربون ، وعلماء ، يحملون من غزارة العلم بقدر ما يحملون من الفضيلة والخلق النبيل والتواضع.

د. جمال حسن العتابي:

الدكتور جواد علي من هذا الرعيل، كنز من المعرفة غير مغلق، نهر يفيض بالعلم والموهبة، قدرة سحرية لشد الطلبة للدرس، وصرامة متناهية في القائمة، لا توفر شعورا" بالإرتياح لدى بعض الطلبة الذين يبحثون عن برهة أسترخاء أثناء المحاضرة، فطيلة سنة كاملة من التعلم، لم تنفرج شفتا (أستاذنا) عن أبتسامة خفيفة، ولم (يرتكب) خطأ يوما" ما في إطلاق مزحة (تفسد) أجواء المحاضرة الجادة، ولم يسمح كذلك البتة بسماعها من الطلبة بما يعكر او يشوه تلك الاجواء فأي طراز من العلماء هو جواد علي ولاية نماذج من الرجال ينتمي؟

جرى التقليد في تتبع آثار هذا الطراز من الشخصيات، التعريف بسيرته الذاتية، وتسجيل مؤلفاته، والاشارة الى شهادته والجامعة التي تخرج فيها. فالرجل ليس بحاجة الى تعريف الا أننا نريد أن نقلب هذه المعادلة، ونتجاوز هذا التقليد الذي دأب عليه الدارسون والباحثون ومتتبعو سير الرجال، بالاشارة والتنبيه أولا" وقبل الخوض في دراسة منهجه البحثي، الى ضرورة الالتفات الى هذه الشخصية بما تستحقه من أهتمام وعناية من قبل المؤسسات العلمية والثقافية في العراق وخارجه، لما قدمه هذا العالم الكبير من منجز فكري في البحث التأريخي، يعد مفخرة كبيرة للحركة الابداعية العراقية والعالمية، ولما تميز به من وفرة بالانتاج، وجدة في الافكار وحضور علمي متميز، واسلوب خاص في الدراسة والبحث، مع وعي متنور للتأريخ، غير منحاز، وهي سمات المؤرخ ألاصيل، الموضوعي، المتجرد والباحث عن الحقيقة حيثما، تكون مطوية في زوايا النسيان.

وبناء على ذلك يقع على جميع المؤسسات الثقافية والعلم ومراكزالبحوث، ووزارة التعليم العالي وجامعاتها، واتحاد المؤرخين العرب والعراقيين، مسؤولية كبيرة، تتمثل بجمع مؤلفاته، واعادة طبعها.

لان لها من الاراء والخصوصية في الاسلوب ورصانة وعمق المضمون، ما يقتضي العمل الجاد لتحقيق هذا الهدف ومن أجل أن نتذكر على الدوام جواد علي، وتبقى صورته شاخصة وحية في عقولنا ووجد أننا، لابد أن نحيي ذكرى وفاته، لا بكلمات التأبين والرثاء، إنما بالبحث والدراسة. والدعوة لتنظيم حلقات دراسية تتناول جهده الفكري الثر، وحبذا لو التفتت تلك المؤسسات باطلاق اسمه على معلم من معالم الفكر والثقافة في العراق.

إن مأثرة جواد علي الكبرى والرائعة، هي بحثه الرصين في (المفصل في تأريخ العرب قبل الاسلام)، وسبقه (تأريخ العرب قبل الاسلام). بأكثر من (٢٠) مجلداً" للمؤلفين. درس فيهما المجتمع العربي كهيئة اجتماعية كون تنظيمها الداخلي مجموعة من الروابط والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والقبلية والفكرية المتنوعة. وعلى الرغم من أن جواد علي نهل من مصادر التأريخ الاول، واعتمدها بشكل أساس في بحثه، لا سيما كتب السير والأنساب وتراجم الرجال، وكتب التأريخ العام، لمؤرخين كبار، كالطبري، واليعقوبي، والمسعودي، والدينوري وأبن قتيبة، وأبن الاثير، وأبن كثير والسيوطي، فضلا عن كتب البلدانيات والمرورياتِ الادبية، ألا أنه يقدم لنا في النهاية، خلاصة هذا الجهد المثابر الذي ابتناه بابداع وتمكن، أراد أن يقول فيه: أن المجتمع العربي يتكون من الناس الذين يحققون الانتاج المادي والروحي، ومن العلاقات الانتاجية الاجتماعية والاقتصادية، وتمكنوا من صنع حياتهم بنسيج خاص لا يخلو من مؤثرات خارجية. هي نتيجة تفاعلهم بمنجزات حضارية ليست بعيدة عن محيطهم، على الرغم من كل حالات التصحر والجفاف والقسوة التي طبعت حياتهم وزادتها خشونة. يريد جواد علي ايصال رسالة تكشف عن مجتمع لا يمكن له ان يعيش مجرداً، مثلما لا وجود لإنسان مجرد، وعلى الرغم من كل الاختلافات فلدى كل مجتمع خصائص تميزه عن باقي المجتمعات. فالانسان في ارض شبه جزيرة العرب، غير منعزل عن الوسط الجغرافي الذي يتضمن الانهار والبحار والغابات والحقول والصحارى والمناخ والثروات الطبيعية والنباتات.

كل ذلك تجده مبثوثاً في سفر جواد علي"المفصل "، لأن حياتنا خارجه غير ممكنة، فتاريخ الطبيعة وتاريخ المجتمع مترابطان، ويؤثر أحدهما في الآخر، والبشرية منذ بدء ظهورها كيفت الطبيعة المحيطة بها .ابتدأ جواد علي مفصّله بأصل الأقوام الأولى التي سكنت شبه الجزيرة العربية، بدراسة انسابها، ودياناتها القديمة، وقبائلها، ولغاتها، وآدابها وسلوكها، ونظامها السياسي. وعرج على دراسة حياتها الاقتصادية"الزراعة، التجارة، الصناعة" كما بحث في حياتها الثقافية والفكرية والاجتماعية، دراسة تفصيلية معمقة، شكلت مصدراً ينطوي على غنى وثراء فريدين لا يمكن لأي باحث او مؤرخ ان يستغني عنها، او يتجاهله، بل هي تقوده في النتيجة الى الانسان في هذا الحيز المكاني، الذي وجد شرط وجوده وكشف سر انتقاله من نظام اجتماعي الى آخر اكثر تقدماً. بتغير الناس ومهاراتهم ووعيهم، وتبدل منظومة حياتهم الفكرية والاخلاقية.

ولأن جواد علي مؤرخ وعالم رصين، فلابد لمن يدرسه من ان يتحرى عوامل الرصانة في منجزه، فينظر في تفاعلها مع بعضها، ولابد من النظر في تجليات تلك الرصانة من احكام نقدية، وآليات واجراءات تستند الى شروط البحث العلمي واحكامه.

وضروري – ان لم نقل واجباً – ان نتأمل ما وقف عنده المؤرخ للبحث في فلسفة اختياره التي رجحت تلك الاعمال للتعامل النقدي والمناقشة.

ونحسب اننا نستطيع ان نلج عالم جواد علي او صرحه العلمي من خلال الدور الثقافي للتاريخ والمؤرخ، فتشكل سيرته وابداعه الفكري والبحث الذي كتبه، مفاتيح مهمة لولوج هذا العالم. وان ثمة الكثير مما يجب عمله في دراسة جواد علي ورصانة منجزه وهو اكثر مما تستوعبه وريقات، او حلقة نقاشية، اذ مارس دوره الفكري بأكثر من صورة ووسيلة عن قناعة تامة اعلنها في اكثر من مناسبة.لقد اختار جواد علي عملاً وجد فيه امتداداً في ساحة واسعة من تاريخ العرب، ولو أجملنا ملامح مشروعه الفكري لرأينا كم فيها من نوافذ ودروب مفتوحة على قضايا التاريخ والمعرفة والادب. فلا نرى في اختيار المؤرخ كتابة هذا التاريخ مجرد مسألة ذوقية، او محصلة عوامل ذاتية، وخبرات قرائية متشابكة فحسب، وانما هو تعبير عن موقف فكري واضح للمؤرخ، فهو اذ يختار عملاً للكشف عن مكنوناته، انما يرشحه للتفاعل معنا، يرشحه للاندماج بالبنى الثقافية والاجتماعية ملماً بقضية التاريخ، واتجاهاته الاساسية، مما يساعد الباحث على الخروج من النص بموقف وفكرة، ان لم يحفزه للعودة اليه، او على الأقل، وفّر له معرفة به، على النقيض من الكتابات التاريخية التقليدية، السهلة، التي تنقض على العمل بأحكام جاهزة ورتيبة، خالية من الابداع والجهد والتفكير، ودونما حيثيات وأدوات كشف.

ان أية محاولة لتقديم الجدوى المعرفية لملف جواد علي لابد لها من التوقف لإثبات انتمائه الى المدرسة التي تتعامل مع ممارسة المعرفة التاريخية كضرورة في تطوير الوعي التاريخي، وتطويعه لغايات تتعلق بالحقيقة والموضوعية. مع وجوب التنبيه الى ان هذا الانتماء، يبتعد كلياً عن الدخول في خانق الانتماء السياسي او الايديولوجي الضيق الأفق. لأنه يعطينا زاداً فكرياً وافياً، مبنياً على قاعدة متينة للانطلاق الى عوالم اوسع خارج الأطر، والتحصينات والوصفات الجاهزة في فهم التاريخ، والتعامل مع الاحداث بخبرة فنية ومعرفة بالتفاعل.

من الممكن ان نعثر في كتابات جواد علي، هذا التعاقب للحوادث التاريخية المنفصلة او المترابطة، محددة بنظام او اتجاه، ومن السهل كذلك ان نكتشف او نشير الى ان حياة البشرية أظهرت ان الحياة الاجتماعية تعمل بقوانين موضوعية، أي مستقلة وخارج وعينا. تلك قوانين تخضع لها الظواهر الاجتماعية، وبمقدور الانسان معرفتها واستخدامها لصالحه، فالاقتصاد والحقوق والتاريخ والاثنوغرافيا، واللغة والأدب، كل منها يتناول جانباً واحداً في الحياة الاجتماعية، وهي في مجموعها تتناول كل جوانب الحياة الاجتماعية. لكنها بمجموعها لا تعطي صورة كاملة للمجتمع، او التأثير المتبادل بينها. ذلك لأنه الى جانب فعل القوانين الخاصة بتطور تلك الفروع، هناك قوانين عامة وشاملة في تطور المجتمع كلياً. فبدون معرفة هذه القوانين، لا يمكن فهم العلاقات المتبادلة بين ظواهر المجتمع، ومكان هذه الظاهرة او تلك في نظام هذه الوحدة.كل شيء في جواد علي مهيب ورصين، علّم تلامذته كيف يكون المؤرخ شريفاً وطاهراً ونقياً. انه ممثل لهويتنا، لم يعرف في حياته غير الكتابة والبحث، عاش وحيداً في شقة متواضعة في شارع الرشيد. كانت ملاذه في وحدته وتأملاته وانشغاله في الهم التاريخي.لم يفعل شيئاً سوى التاريخ، والتاريخ كما هو الشعر حياة وأمل ووطن، مأخوذاً بالذي حدث، والذي يمكن ان يحدث، لم يكن بحاجة لمن يوجه الانتباه في حياته الوديعة الزاخرة بالعطاء، او كان بحاجة الى ثناء ومشاعر رقيقة. لكنه انطفأ في زاوية النسيان، وسط كل هؤلاء اللاهين عنه.مجداً لجواد حيث ولد.